حرص الرئيس جاك شيراك، أثناء زيارته إلى القاهرة سنة ١٩٩٦، على الالتقاء بالمثقفين المصريين. وفي لقائه بهم في القاعة الكبرى بجامعة القاهرة، ألقى محاضرةً كانت معدّةً سلفاً ووُزِّعتْ ترجمتُها باللغة العربية على الحاضرين. وكان الحرصُ فيها واضحاً على تنمية العلاقات الثقافية المتميزة بين فرنسا ومصر، باعتبار الثقافة هي المجال الأكثر حيوية في اللحظة الراهنة.

نابوليون بونابرت، بريشة جاك ـ لوي داڤيد (١٨٠٠)

١٨٩٨ ـ ١٩٩٨

حملة تفتيش فرنسية على الثقافة المصرية

سيّد البحراوي

بعد هذه الزيارة تم الاتفاقُ بين الحكومتين على الاحتفال بمرور مائتي عام على الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٨٩٨، لتكون فرصةً لتحقيق الهدف الذي دعا إليه الرئيس شيراك. وما إن بدأتْ أخبارُ هذا الاتفاق تتسرب، حتى باشر المثقفون المصريون الهجومَ، الشفاهيَّ أو المكتوب (منذ بداية العام الماضي ١٩٩٧)، وتولّتْ **أخبار الأدب** الأسبوعية قيادةَ هذه الحملة، التي لم تتوقف حتى الآن، وإنْ خارج **أخبار الأدب**. وقد ترتب على هذه الحملة الصحفية أن تغيَّر عنوانُ الاحتفال ليصبح: «مصر ـ فرنسا: آفاق مشتركة».

وفي إطار هذا الاحتفال، تمّتْ وتتمّ مجموعةٌ من الأنشطة تتمثل في الترجمات المتبادلة لنصوص تتعلق بالحملة الفرنسية وغيرها، وفي إقامة معارض للفنون التشكيلية والفنية المختلفة، بالإضافة إلى زيارات لوفود من الأدباء والمثقفين، فرادى وجماعات، وقد رُصدت ميزانيةٌ مشتركةٌ

كافيةً لتغطية نفقات هذه الأنشطة.

ولقد أدّى هجومُ العديد من المثقفين والصحفيين المصريين (والعرب)، سواء في الصحافة المصرية أو العربية، إلى ردّ فعلٍ عنيف من قبل أنصار الاحتفال، وأعضاءِ اللجنة التي شُكِّلتْ لإتمامه برئاسة الكاتب والفنان ونقيب الصحفيين المصريين السابق، ورئيس مجلس إدارة مكتبة القاهرة الكبرى، الأستاذ كامل زهيري. وفي مقابل هذه الاتهامات التي وصلتْ حدَّ التخوين، جاء ردُّ فعل المحتفلين متَّهِماً معارضي الاحتفال بأنهم جهلة ومنغلقون وسطحيون وديماغوجيون.

ولن نفيض هنا في تفاصيل المعركة، وإنْ تطرقنا إلى بعض التفاصيل فيما بعد، لأنّ الهدف الأساسي من هذه المقالة هو الغوص إلى ما وراء الاحتفال والمعركة، في محاولةٍ للإمساك بالجذور والأهداف، ورؤيةِ مدى تحقّق هذه الأهداف حتى الآن.

- ١ -

لا يَخفى على المتابعين لحركة السياسة العالمية حجمُ الصراع الذي تخوضه فرنسا، في مجالات مختلفة، في إطار «النظام العالمي الجديد» الذي تسعى الولاياتُ المتحدة ـ وتدعمها بريطانيا ـ إلى السيطرة المطلقة فيه على العالم، بما فيه الكتلة الأوروبيّة. وفي المقابل تقف فرنسا وألمانيا على رأس الكتلة الأوروبيّة في مواجهة هذا السعي، وذلك بتكوين أوربا موحدة، تكون طرفاً قوياً في الصراع قادراً على أن يكون ندّاً، وإن لم يكن بالضرورة عدواً، ويستطيع أن يلعب دوراً قيادياً فعّالاً في النظام العالمي الجديد.

غير أنّ صراع فرنسا المعاصر أعمق من ذلك بكثير. فقيادة هذه الكتلة الأوروبية هو حلم فرنسا، وهي تراه حقاً طبيعياً لها في مواجهة ألمانيا الأقوى اقتصادياً. ومن هنا فالصراع التاريخي بين فرنسا وألمانيا على قيادة أوروبا هو صراع سياسي ولكنه ثقافي أو حضاري في المقام الأول. والأمر نفسه يمكن أن يقال عن الصراع مع أمريكا وبريطانيا. وفي هذا السياق يمكن أن نَفْهم معركةَ اللغة الفرنسية ضد الغزو اللغوي الإنجليزي، ضمن معركة تصدّي المثقفين الفرنسيين للغزو الاستهلاكي الأمريكي بصفة عامة. وفي هذه المعارك جميعاً يبدو ميدانُ الثقافة هو أداة فرنسا الأساسية في اللحظة الراهنة. وهي هنا تعتمد على تراث طويل ممتد منذ عصر الأنوار والحملة الفرنسية. ومئاتُ المبدعين والمفكرين والفلاسفة يؤهلونها لأن تكون عاصمةَ النور للعالم كله، كما تنظر هي إلى نفسها، وكما ينظر اليها ملايينُ المثقفين في العالم كله.

واللغة الفرنسية هي وعاء النور الفرنسي، وهي أيضاً رمزٌ لكل فرنسا، ولكل التميّز الفرنسي. ومن هنا فهي الإطار الأساسي الذي تخوض فرنسا المعركةَ من خلاله، وأعني: إطارَ الفرانكفونية التي عملتِ الحكوماتُ الفرنسيةُ المتتالية في السنوات السابقة على تنميتها تنظيماً، وامتداداً جغرافياً، وتنوُّعاً في مجالات النشاط.

فالمنظمة الفرانكفونية لم تعد تضم الدول الناطقة بالفرنسية كلغة رسمية أو لغة أولى فحسب، بل تعدّتْها إلى دول كثيرة لا تتكلم فيها الفرنسيةَ إلا فئاتٌ قليلةٌ، كمصر على سبيل المثال. والفرانكفونية هنا ـ إذن ـ لم تعد مجرد وعاءٍ يضم متحدثين بلغة، ولم تعد تصلح وصفاً لغوياً، وإنما صارت كياناً سياسياً يراد به الاتحادُ مع فرنسا ومناصرةُ سياستها ومساندتُها في صراعاتها المتعددة، سواء داخل أوروبا أو خارجها. وكل هذا بالطبع يصب لصالح البرجوازية الفرنسية التي تعاني في السنوات الأخيرة من أزمات خانقة ليس أقلَّها البطالةُ المتزايدةُ وضروراتُ التقشف من أجل إتمام الوحدة الأوروبية وغيرها.

في هذا السياق لا يمكن لفرنسا أن تعتبر مصرَ شيئاً هامشياً أو ثانوياً. بل إنّ التعبير التاريخي القديم: «إنّ مصر جزء من فرنسا» ما يزال يستخدمه المستشار الثقافي الفرنسي بالقاهرة؛ وقد استخدمه فعلاً في افتتاح ندوةٍ بجامعة القاهرة في شهر مارس الماضي.

- ٢ -

لقد جاءت الحملةُ الفرنسيةُ إلى مصر (والشام)، ورحلتْ بعد ثلاث سنوات بعد أن فشلتْ في تحقيق الهدف المباشر، وهو الاحتلال الاستيطاني للمنطقة. لكنها ـ من وجهة نظري ـ حققتْ هدفاً أخطر وأعمق هو الاستيطان الذهني في مَنْ يمكن أن يُطلَقَ عليهم «المثقفون المصريون» آنذاك، إلى الدرجة التي جعلتْ بعضَهم لا يستطيع الحياة في مصر دون الفرنسيين، فرَحَل معهم حين رَحَلوا. وفي اعتقادي أنّ الاستيطان الذهني الذي حققه الفرنسيون في مصر ليس راجعاً إلى خصوصية معينة في الفرنسيين، كما يدّعي البعضُ حين يميِّز بين نَمَطَي الاحتلال الفرنسي والاحتلال الإنجليزي مثلاً (فما نعرفه عن عنف الفرنسيين في الجزائر، على سبيل المثال، لا يقود أبداً إلى مثل هذا التميز). بل إنّ نجاح الفرنسيين في أن يستوطنوا أذهانَ فئةٍ معيّنة من المصريين يمكن أرجاعُهُ إلى أنّ أولئك الفرنسيين كانوا أوّلَ من فضّ بكارةَ هذه الفئة بما حملوه من تكنولوجيا حديثةٍ بالتحديد. وأياً ما كان حجمُ العنف الذي فُضَّتْ به هذه البكارة، فإنها عملية لا يمكن للمرأة أن تنساها مع الأزواج التالين، بل يمكن القول ـ في حالةٍ مرَضية كالتي نحن بإزائها ـ إنّه كلما كان الفعلُ أعنفَ، استعصى على النسيان، حتى وإن امتزج الألمُ بالرغبة دائماً وعلى نحو مركَّب.

لقد كان الفرنسيون هم «البِيضَ الأوائلَ» (الكثيري العدد

والعدة) الذين واجههم المصريون، وكانت التكنولوجيا التي حملوها أولَ «سحر» حديثٍ يراه المصريّون في ظلامهم الذي كانوا يعيشون فيه، وبصفة خاصة في مجال التكنولوجيا والأسلحة. ومن هنا، فإنّ ميزة الفرنسيين الكبرى في مصر هي أنهم هم الذين قدّموا هذا «السحر»، فارتبط السحرُ بهم ولم ينفكّ. ولم يتحول انبهارُ الفئة المنبهرةِ والتابعةِ ذهنياً عن النموذج الفرنسي طوال فترة الاحتلال الإنجليزي التي زادت عن السبعين عاماً، إلى الدرجة التي جعلت أستاذاً مهماً للتاريخ الحديث يتحدث في الندوة التي أشرنا إليها من قبل عن أنّ اللغة الفرنسية كانت سلاحاً يستخدمه المصريون لمقاومة الاحتلال الإنجليزي... ناسياً أنّ التبعية الثقافية للنموذج الفرنسي ـ وإنْ ظلّتْ كامنةً في عمق الارستقراطية والبرجوازية المصرية الكبيرة ـ لم تمنع هذه الطبقة من التعاون السياسي مع المحتلّ الإنجليزي!

وفي تقديري أنّ مشروع محمد علي هو الذي كرّس، مع أبنائه وأحفاده حتى إسماعيل، هيمنةَ الاستيطان الذهني الفرنسي في مصر. وليست المسألةُ ناتجةً فحسب عن الصلة الوثيقة بين مصر محمد علي وفرنسا، من حيث البعثاتُ المصرية المُرسلة إلى باريس، أو من حيث استجلابُ الخبراء الفرنسيين والتكنولوجيا الفرنسية إلى مصر. بل الأهم هو أنّ نموذج الدولة الحديثة الذي أراد محمد علي أن يبنيه (وإنْ بسياسته التوسعية) كان هو نموذجَ الدولة الفرنسية الرأسمالية. كذلك يمكننا هنا أن نضيف أنّ وسائل تحقيق محمد علي لهذه الدولة لم تختلف أبداً عن الوسائل التي كان يمكن أن تمارسها الحملةُ الفرنسيةُ لو بقيتْ في مصر. أقصد أنّ محمد علي نجح ـ حين أخفقتِ الحملةُ الفرنسية ـ في القضاء على البذور الطبقية المحلية التي كانت مرشحةً للنمو ولتكوين مجتمع رأسمالي مصري من الداخل (والمقصود هنا: مجتمعُ التجارِ والحرفيين ومشايخ الأزهر). بل أحلّ محمد علي محلّ هذه الفئات فئاتٍ اجتماعيةً جديدةً منتقاةً بعناية، صُنِّعتْ على مستوى الوعي والسلوك بعناية أيضاً، لكي تمثّل النموذج الذي يرضاه محمد علي: نموذَجَ التابع للدولة من ناحية، والمتبني للنموذج الحضاري الفرنسي من ناحية أخرى. ولعلّ نموذج رفاعة الطهطاوي على المستوى الفكري، ونموذجَ علي مبارك على المستويين الفكري والسلوكي، أن يوضحا ما أقصده.

ورغم العداء الفادح الذي مارسه الفرنسيون ضد محمد علي في معركة «قوتية» التي أدت إلى انهيار امبراطوريته، فقد استمرّ الاستيطانُ الذهنيُّ الفرنسي لأبناء محمد علي وأحفاده حتى عصر إسماعيل الذي أراد أن يعتبر مصر جزءاً من أوروبا؛ وكان يَقصد ـ غالباً وبحكم العلاقات الوطيدة ـ أن مصر جزءٌ من فرنسا.

ـ ٣ ـ

ولا يحتاج الأمرُ إلى متابعة تفصيلية لعلاقة شريحة من المثقفين المصريين ـ المنتمين إلى البرجوازية الكبيرة أو الملتحقين بها (من أمثال طه حسين) ـ بالثقافة الفرنسية، لكي نعرف اليقين الفرنسي الواثق من حجم وجود الثقافة الفرنسية في مصر، عبر هذه الشريحة، وعبر مظاهر أخرى لا مجال لذكرها الآن. غير أنّ هذا اليقين الواثق قد أخذ في التخلخل منذ بدأت الهيمنةُ الأمريكيةُ على مصر في التزايد منذ أوائل السبعينات، وخاصةً في النشاط الثقافي المتمثل في الجامعة الأمريكية والمركز الثقافي الأمريكي وشبكة البحوث «العلمية» المشتركة والبعثات والمِنَح التي تنفق عليها الولاياتُ المتحدةُ الكثيرَ، من أجل إحكام الهيمنة على الشريحة الاجتماعية الحاكمة والمرشّحة للحكم في المستقبل.

ومن الواضح أنّ الفرنسيين في ظل صراعاتهم التي سبق أن أشرنا إليها، بل وربما قبلها، قد بدأوا يشعرون بالقلق إزاء إفلات هذه الشريحة بالذات من أيديهم. وبدا أنهم متخلّفون عن الأمريكيين في مجال الصراع داخل مصر، سواء من حيث المعلومات أو من حيث النشاط. ومن هنا تمّ تنشيطُ «مركز الأبحاث الفرنسي» (سيداج) الذي نجح خلال عقد من الزمان في إنتاج معرفةٍ علميةٍ ضخمةٍ عن كل المجالات في مصر، عبر أبحاثه وندواته ومجلته التي تَصْدر فصليةً بالفرنسية (Egypte, le monde arabe) مع عدد سنوي واحد بالعربية يتضمن مختاراتٍ مما تنشره بالفرنسية... مع الحرص الواضح على إشراك المصريين في هذه الأنشطة. وبالإضافة إلى ذلك تم تكثيفُ أنشطة «المركز الثقافي الفرنسي» بالقاهرة، وتوسيعُ فروعه، وتدعيمُ علاقاته مع أقسام اللغة الفرنسية بالجامعات المصرية، حتى ليكادُ هذا «المركز» اليومَ أن يكون المشرفَ الفعليَّ على تعليم الفرنسية في مصر.

وبجانب هذا أُنشئ قسمٌ خاص لترجمة الأدب والفكر الفرنسي إلى العربية، بالتعاون مع دور النشر المصرية، ورُشِّحَتْ بعضُ الأعمال المصرية للترجمة والنشر باللغة الفرنسية. ولا شك أن هذا النشاط الأخير المتميز كان باهر النجاح في تقديم خدمات

الفرانكفونية لم تعد وصفاً لغوياً، بل غدت كياناً سياسياً يُراد به مناصرة فرنسا في صراعاتها داخل أوروبا وخارجها

حقيقية للقراء والناشرين والمبدعين والمترجمين في مصر. كما كان باهر النجاح ـ بالطبع ـ في توثيق صلتهم بالثقافة الفرنسية و... بفرنسا كما سنرى فيما بعد.

ليس هنا، بالطبع، مجالَ رصدِ النشاط الفرنسي في الثقافة المصرية المعاصرة. لكنّ تزايد هذه الأنشطة يشير بوضوح إلى القلق الذي ألمعْتُ إليه من قبل. ومن الواضح أيضاً أن هذا التزايد لم ينجح في إزاحة القلق، لأنّ الهيمنة الأمريكية تزداد وتدعمها بوضوح الطبقةُ الحاكمةُ ومثقفوها. ومن هنا جاءت حملةُ التفتيش الفرنسية على الثقافة المصرية المعاصرة وعلى أذهان المثقفين المصريين المعاصرين، لكي تَعْرف بالضبط ما بقي لها من رصيدٍ بعد مرور قرنين من الزمان. ومن هنا جاء هذا الاحتفالُ مناسبةً جوهريةً لكي يعلن المثقفون المصريون كشوفَ حساباتهم علانيةً لفرنسا. وها هو، من وجهة نظري، كشفُ حسابِ الاتجاهات المختلفة إزاء هذه الحملة.

فرغم أنّ الحملة ـ كما أوضحنا في البداية ـ لم تكن مفاجئة، بل رُتِّبتْ على مدى عامين وبالاتفاق مع وزير الثقافة المصري، فإنّ المثقفين المصريين لم يستعدّوا لمواجهة هذه الحملة كما ينبغي. واتّضح أنّ مشكلة المثقفين المصريين تتخطّى كونَهم مجرد فرق واتجاهات ومصالح مختلفة. إذ لم تعد هناك فرق أو اتجاهات، وإنما أفرادٌ مشتتون يَصْعب أن تجد الحدَّ الأدنى الذي يجمع كلٌّ فريق منهم من أجل فعلٍ مشترك. وليس هنا مجال تفسير ذلك، فهذا يحتاج إلى بحث آخر مطوّل. لكنْ لا بدّ ـ على الأقل ـ من الإشارة إلى دور السلطة السياسية والثقافية في هذا الوضع. فالحملة المنظمة ـ نسبياً ـ التي بدأتْها **أخبارُ الأدب** منذ بداية عام ١٩٩٧، لم تتحملها مؤسسةُ «أخبار اليوم» [التي تُصدر **أخبارَ الأدب**] رغم أنّ هذا الملحق الأدبي الأسبوعي كان ينشر الآراء المختلفة في الموضوع المذكور. وهكذا قرّرت مؤسسة «أخبار اليوم» تقليصَ هذه الحملة الصحفية إلى أدنى حد، أي إلى مجرد تعليقات القراء (لا كبار الكتاب) في زوايا منسية من الصحيفة. وفي هذا الوقت أفردتِ **الأهرامُ** أوسعَ صفحاتها دفاعاً عن الاحتفال؛ وتكفي الإشارة إلى أنّ وزير الثقافة شخصياً قد خرج عن طوره في مرات عديدة لسبّ المعارضين سبّاً مقذعاً.

غير أنّ موقف السلطة وحده لا يكفي لتفسير موقف الرافضين للاحتفال؛ وهو موقفٌ مضطربٌ بدا في ضعف ردِّ الفعل، وفي عدم قدرة الرافضين على إقناع كتلة كبيرة من المثقفين «المحايدين» والمرشّحين للمشاركة في الاحتفال. فهناك أيضاً الذكاءُ الفرنسيُّ الذي دأب على نفي صلة فرنسا بكثير من الأنشطة التي تقدّم فيها الثقافةُ والمثقفون المصريون في فرنسا على مدار العام، بحجة أنّ هذا هو عامُ الثقافة المصرية (واليابانية) في فرنسا ـ وهو (كما يُزْعم) لا يعدو أن يكون تقليداً فرنسياً سنوياً يَحْتفل كلّ عام بثقافةٍ من الثقافات المتعددة. وقد انطلت هذه الحجةُ بالفعل على بعض الأدباء الذين سافروا إلى فرنسا في شهر إبريل (نيسان) الماضي.

غير أنّ هذا أيضاً لا يكفي للتفسير. وفي اعتقادي أن السبب الجوهري يعود إلى أمرين. الأمر **الأول**: هو تشتّتُ القوى الوطنية وأحزابِها ومنظماتِها، وانضواءُ بعضِها تحت إطار سياسة السلطة «التنويرية» المزعومة لمواجهة الإرهاب [الأصولي]. والأمر **الثاني**: هو أنّ المعارضين لم يفهموا بعمقٍ ملابساتِ حملة التفتيش وأهدافَها التي حاولتُ توضيحها في هذا المقال. كما لم يفهموا الالتباسَ العميق الذي يعيشه فريقٌ معين من المثقفين، سواء أكان ذلك تاريخياً أم في اللحظة الراهنة؛ وهو التباس لا يصح معه القول بأنّ مَنْ يحتفل بمرور قرنين على غزو مصر هو خائنٌ لمصر، بل إنّ الأمر أعقد من ذلك بكثير.

ـ ٤ ـ

كنتُ أتحدثُ في ندوة عن الحلّ الذي قدّمه محمد المويلحي في كتابه **حديث عيسى بن هشام** لأزمة المجتمع المصري؛ فقد أوْرد على لسان الحكيم الفرنسيّ ضرورة استيراد التكنولوجيا من أوروبا، والاحتفاظ بأخلاقنا القويمة. وقلت إنّ هذا الحل هو سبب الكوارث التي نحن فيها الآن؛ فقد طبّقه محمد علي وكلُّ مَنْ جاؤوا بعده. بعد الندوة أخذني كاتبٌ ناصريٌّ معروف جانباً وقال بانفعال شديد: «يا دكتور، نحن لم نأخذ من الفرنسيين التكنولوجيا فقط، بل أخذنا منهم الفنَّ والقانونَ وكلَّ شيء». أدهشني حديثُ الكاتب لسببين: **الأول** علمي. فمن المعروف أنّ محمد علي مَنَعَ مبعوثيه من الاتصال بالجوانب الثقافية الروحية الفلسفية ـ الدينية من الحضارة الفرنسية. ومن المعروف أيضاً أن ترجمة رفاعة الطهطاوي للقانون الفرنسي كانت أيضاً أقربَ إلى نقل التكنولوجيا، دون معرفة روح القانون وملابساته وضروراته؛ وحينما فُرض هذا القانونُ على المجتمع المصري من أعلى كان كارثةً حقيقيةً للناس، وخاصة للطبقات الشعبية؛ وهو ما صوّره أدقّ تصويرٍ توفيق الحكيم ـ وإنْ من منظور الإدانة

هل يراد لنا أن نعتبر الحملة الفرنسية حملة تنوير وتمدين، وأن ننسى العدوان الثلاثي واحتلال سوريا وتونس والجزائر والمغرب؟

لتخلف الشعب المصري ـ في **يوميات نائب في الأرياف**.

أما السبب **الثاني** لاندهاشي من الكاتب فقد كان الانفعالَ الحادَّ في كلامه. وهذا الانفعال كان وسيلتي إلى فهم انفعاله فيما كتبه من قبلُ، وإلى فهم هجومِهِ على المحتجّين، وربطِهِ هجومَه هذا بالزعم بأننا لا نحتفل بالحملة الفرنسية، وإنما نحتفل بالمقاومة الشعبية المصرية للحملة الفرنسية! وقد نبَّهني هذا الانفعالُ إلى أن عدداً كبيراً من المثقفين ـ حتى من بين مثقفي التيار القومي ـ يشعرون بدَيْن مصر الكبير لفرنسا، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون الاعترافَ به علناً في ذكرى مرور قرنين من الزمان على الحملة الفرنسية، فيضطرون إلى إقحام المقاومة الشعبية والتخفي وراءها. لم نر ـ إلى هذه اللحظة ـ أيَّ احتفالٍ بالمقاومة الشعبية للحملة، وفي تقديري أنّ هذا ليس وارداً في الخطة التي تنفذها وزاراتُ الثقافة الرسمية، وهي وزارات لا أظنها تحب كثيراً المقاومة الشعبية، لا في مصر ولا فرنسا!

هذا فريق من المثقفين. وهناك فريق آخر، مثل الدكتور يونان لبيب رزق، دعا إلى «الاحتفاء» بالحملة لا «الاحتفال» بها، دون أن يستطيع أن يوضح لقرائه في **الأهرام** مغزى الفارق بين الاثنين، اللهم إلاّ أنّ «الاحتفاء» يعني الدراسة والتدقيق والتمعن. وعلى كل حال، كان مفيداً أن يعلن انسحابه من اللجنة المنظمة لـ «الاحتفال».

أما الفريق الأهم من المحتفلين، ومنهم رئيس اللجنة، فيتبنَّوْنَ بوضوح المنظورَ الفرنسيَّ الذي سبق أن أوضحْتُهُ في صراعات فرنسا المعاصرة، وإن كانوا يضعونه تحت شعار براق، وهو أنّ علينا لمواجهة الهيمنة الأمريكية على مصر أن نستعين بالثقافة الفرنسية. والفارق بين شعارهم والهدف الفرنسي، هو الفارق بين مصطلح «الاستعانة» وهدف «الهيمنة البديلة». ذلك لأنّ الهدف الفرنسي واضح دون شك، ولا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن نفهم حرصَ فرنسا على اختيار ذكرى الحملة الفرنسية للاحتفال بالثقافتين المصرية والفرنسية، وخاصة أنّ هذه الذكرى ليست ذكرى ثقافيةً في المقام الأول. كما أنّ هناك ذكرياتٍ ثقافيةً أهمّ قبل تلك وبعد ذلك، مثل اكتشاف حجر رشيد وفكّ رموزه.

إنّ الهدف من هذه الاحتفالات ليس إعلانَ الولاء لفرنسا فحسب، وإنما أيضاً أن يعلن المصريون تبنِّيَهُمْ للمنظور الفرنسي (الذي لا يتبناه كلُّ الفرنسيين أنفُسِهم) والذي يرى أن الحملة لم تكن ذات أهداف استعمارية وإنما كانت حملةَ تنوير وتمدين. بل قد تهدف هذه الاحتفالات إلى إشاعةِ أنّ فرنسا لم تتواطأ ضدنا في بداية القرن، ولم تحاربْنا في العدوان الثلاثي في ١٩٥٦، ولم تحتل سوريا ولا تونس ولا الجزائر ولا المغرب. وهذه الأهداف الفرنسية تستغل، من وجهة نظري، الولاءَ الثقافيَّ لدى بعض المثقفين، والإعجابَ الذي تكنُّهُ أجيالٌ من شرائح البرجوازية المصرية لبلد النور والثقافة، دون أن تدري [تلك الأهدافُ الفرنسيةُ] أنها بذلك تضطر أولئك المثقفين والشرائح إلى محاولة فكِّ لَبْسٍ سيكولوجيٍ (بين إعجابهم بالثقافي ورَفْضِهِم للسياسي) أعتقد أنهم لا يقدرون عليه الآن. وبذلك قد تكسب فرنسا مؤقتاً، ولكنها ستخسر على المدى البعيد، لأنها قد تساهم في تحويل هؤلاء الملتبسين إلى مَرْضى، كما تخسر الكثيرين ممن أزعجهم أنّ فرنسا ما زالت تفكِّر على هذا النحو. وتقديري أن هذا المرض سيصيب كثيراً من المثقفين، حتى التقدميين الذين أعلنوا في بعض المناسبات أننا لو نجحنا في ترتيب الاحتفال بطريقة مختلفة لَكُنّا استفدنا من الفرصة المتاحة والتمويل المرصود. غير أنّ هذا التصور انتهازي أولاً، وقاصرٌ ثانياً عن فهم الأهداف الفرنسية، وعن فهم الدوافع التجارية لدى بعض مسؤولي الثقافة في مصر... وهي أهدافٌ ودوافعُ التقت لتحديد عناصر الاحتفال ولتحديد موعده بشكل خاصٍّ، ولم تكن ستسمح بأن يخدم أهدافاً أخرى «تقدمية»!

ـ ٥ ـ

لقد كنتُ ـ وما زلت ـ أؤمن بأنّ لفرنسا دوراً مهماً في الصراع العالمي المعاصر، وأننا ـ كعرب ـ يمكننا أن نستفيد من هذا الدور. ولكنّ هذا مرهون بنجاحنا في أن يكون لنا ـ نحن أصلاً ـ وجودٌ قوي. وكنتُ ـ وما أزال ـ أؤمن بأن في الثقافة الفرنسية ـ شأنها شأن كلّ الثقافات ـ جوانبَ شديدةَ الأهمية يمكن الاستعانةُ بها في تطوير العلم والمعرفة عامة. ولكن هذا أيضاً مشروط بشرطين: الأول هو أن نكون أقوياء إلى الحد الذي يجعلنا قادرين على أن نقرّر ونختار ما نريد وما لا نريد؛ والثاني هو أن تكفّ الإدارةُ الفرنسيةُ عن منهجها الاستيطاني الذهني، وتتعاملَ مع الآخر كندٍّ مستقلّ، لا كمستوطَنَةٍ عليها الاعترافُ بفضل المستوطِن. وفي هذه الحالة تتساوى، بالنسبة إلينا، الهيمنةُ الفرنسيةُ مع الهيمنة الأمريكية، أو أيّ هيمنةٍ أخرى. وحين نتصور أنّ باستطاعتنا الاستعانةَ بفرنسا في مواجهة أمريكا، دون إدراك العلاقة المركبة بينهما (وهي علاقةٌ تترجّح بين الوحدة والصراع)، ودون إدراك الأهداف الفرنسية تجاهنا، فإننا نعود لتكرار ما مارسه محمد علي ومصطفى كامل، وسنصاب كما أصبنا معهما بالخذلان.

غير أنّه من الواضح أننا لا نتعلم من التاريخ، لأنّ قياداتنا الفكريّة والثقافية ما زالت مصابةً بمرض التبعية الذهنية الذي يمنع التفكير والإبداع والتعلم. وربما كانت هذه هي إحدى النتائج التي أرادت فرنسا أن تكتشف ـ بحملة تفتيشها ـ أنها ما زالت موجودة، لأنها أهم ما أثمرته حملتُها العسكرية منذ قرنين من الزمان.

القاهرة